الشرنقة

هناء كرم

كالشرنقة داخل خيوط الحرير كنتُ.
أو هكذا أحسستُ.
كنت كمن انغلقت حوله كل الصور والأصوات، أقف مذهولة وأنا أنظر الى الجميع من حولي، يتراكضون ويتساءلون بعضهم بعضاً بصوت منخفض، يتكلمون لغة لم أتعلمها بطلاقة بعد، أتمكن من فهم الكثير من كلماتها لكن حالتي الآن لم تسمح لي فهم أي من الكلمات التي يقولونها.
قلقي على زوجي أعمى بصيرتي وأخرس كلماتي القليلة التي تساعدني على التفاهم هنا في هذا البلد الذي أبقاني فيه حبي لزوجي، زوجي الذي يكاد القلق يقتلني للاطمئنان عليه.
كنت أنظر اليهم مستاؤون من اللاتعبير على وجهي واللا جواب على شفاهي.
ماذا أكل؟ ماذا حدث؟ متى بدأت العوارض؟ ماذا أحس؟ ماذا فعلتِ؟ لماذا لم تسرعي به الى الطبيب؟ لماذا لم تتصلي بنا؟ لماذا وألف لماذا؟؟
كان أهله جميعاً حولي .. يسألونني، لكن الكلمات التي يتكلمون بها لم أستطع فهمها أبداً و اللهجة التي يستعملونها تمحي كل ما كنت أفهم.
يعرفون أن السرعة في الكلام تؤخر فهمي وكانوا دائماً بمحبة ينتبهون الى ذلك، ما بي اليوم أحس لهجة مختلفة، هل هي لهجة القلق أم تبدو لهجة كره، هي تبدو فقط كذلك.
أنا أريد أن أحكي لهم كل شيء، فلينتظروا حتى أتماسك وألتقط أنفاسي، أعرف أنهم يريدون الاطمئنان، الطبيب سيخرج ويخبرنا حالاً.
كان الطبيب لطيفاً جداً، تمكنت كلماتي القليلة من شرح حالة زوجي المبعثرة عند وصولنا، هبوط ضغطه المفاجيء أو أزمته القلبية وآلامه المفاجئة.
هل أخطأت باخبارهم أنني نقلته الى المستشفى؟ هل كان يجب أن أنتظر النتيجة.
ما جعل الأمور أسوأ أنهم كانوا مجتمعين فأسرعوا جميعاً ووصلوا معاً وتناولوني بالأسئلة.
ليت أحدهم يحس بي وبغربتي، يشفق على لوعتي، ويكسر هذا الغلاف البلاستيكي أو الزجاجي الذي أحسه يحيطني وسيخنقني قريباً.
ليتني أتمكن أن أقول بل أصرخ بهم، ماذا تظنون ألا أريد أن أنقذ زوجي وأطمئنكم؟ ألا تعتقدون أنني أود التفوه بكل كلمات لغات العالم لانقاذه، تركت كل شيء لأجله.

لطالما قلت له: لنبقى في بلادي فأنت تتكلم لغتي وأهلي يحبونك وهذا جيد، باستطاعة أولادنا أن يكبروا هنا براحة وأنا باستطاعتي الاعتناء بك وبهم جيداً وأساعدك في العمل. لكنه أصر على العودة الى بلاده وأكد لي أنني سأتعلم اللغة بسرعة وسيحبني أهله ويعتنون بي وسأكون جزء من العائلة سريعاً ولن أحس بالغربة.
حبي له جعلني أصدقه، وكان كل ما حوله جنتي ، لكن الحب أمر وحقيقة الأشياء أمر آخر.
صار عمر ابني سنتين ولا زلت لا أتكلم من لغته الا القليل، ولا أحظى من حب العائلة الا القليل. لكن من أجله كانت كل الأمور تهون دوماً.
حين بدأت عوارضه الصحية تظهر طلب مني ألا أخبر أحداً. أقنعني أنها حياتنا ووحدنا نتمكن من التغلب على كل شيء، أطعته لأنني أتفق معه بالرأي ورحت أسهر أكثر على راحته وخدمته ، وكان تحسن صحته ملحوظاً فنسينا الأمر.
حتى عاد الألم الفظيع مساء البارحة فجأة.

أحس أنهم سيقتلونني عندما سيعلمون من الطبيب أننا كنا هنا منذ فترة وأجرينا فحوصات مشابهة ولم نخبرهم.
كانت ارادته ألا نخبرهم، أفهم حب أمه وخوفها، لكن ما بيدي حيلة، ليت بامكاني أن أقترب منها وأحضنها وأطلب منها أن تصدق مشاعري ، نحن الاثنتان نحب هذا الرجل ونحن بحاجة الى بعضنا البعض.
لا أدري لماذا لم تحبني منذ اليوم الأول، أحسست بفتورها لكنه دائماً كان يعزوه الى حاجز اللغة.
حتى عندما انتقلنا الى منزلنا كنت أحاول جاهدة مسايرتها لكنها كانت دائماً فاترة، ربما أرادت له عروساً أخرى من يدري.
يوم ولد ابني، لم يفرحوا كما توقعت ولم يقدروا لي تسميته باسم جده. لكني لم أتوقف مطلقاً عند التفاصيل ودقائق الأمور، لأن سعادتي في بيتي مع زوجي وابني كانت كبيرة عوضتني عن كل شيء.
واليوم أنظر حولي وأراهم جميعاً عداه، فما أنا فاعلة؟؟ تضيق الشرنقة حولي وأحس بالاختناق.

اقتربت الممرضة مني محاولة مؤاساتي، وقالت لي أن الطبيب سيدعوني لزيارة زوجي لأنه في حالة خطيرة.
حالة خطيرة؟ لا لا أنا لا أفهم اللغة جيداً، هي المرة الأولى التي أحس أنني أتمنى أن أكون ما فهته خطأ.
قدمَتْ لي كأس ماء ، شربْته علني أذيب الشرنقة من حولي... وأتنفس.

خرج الطبيب، فوقفنا جميعاً حوله، لحظتها تمنيت حقاً أن تتوقف عقارب الساعة هنا في هذه الدقيقة بالذات، لا أريد أن يكون أي خطر آتٍ من كلام الطبيب أنا لا أريد سماع أي خبر سيء.

ولكن بكل أسف ، تحدث الطبيب مطولاً وأنا أصارع الشرنقة حولي لأسمع ، لأفهم دون فائدة، أمسكتني الممرضة من يدي واصطحبتني مع أمه وأخواته الى الداخل.
شهقت، شهقت عندما رأيته مكبل بكل أنواع الأنابيب والكمامات وأحسست بالموت يرفرف.
سمعتُ عويل أمه، سمعتُ بكاء أخواته، لكني لم أسمع عويلي ، كان قلبي ينزف بشدة وقلبي يطرق والشرنقة تضغط على حواسي حتى فقدتها كلها، وأنا أنظر الى عينيه المغمضتين وقلبه المنطفىء.
وصرخت في غيبوبتي ، دعوته ، رفعت صوتي في وجهه لأول مرة ، عاتبته تارة وتدلعت عليه تارة أخرى، حاولت استعمال الألاعيب النسائية كلها دون فائدة، بقيت عيناه مغمضتين الاغماضة الأبدية.

لم يعد يهمني ما يقولون، لم أعد آبه لفهم لغتهم، حملت ابني وضممته.. وأحسست أنني لن أنعتق من هذه الشرنقة بعده ان لم أحزم حقائبي وأعود من حيث أتيت.

قبل أن أغلق باب بيتنا حاملة ابني ، نظرت حولي أودع الجدران التي طوتنا وكانت شاهدة على فرحنا وحبنا اقتربت أمه مني وأعطتني كتاب تعليم اللغة الذي تركته عن سابق اصرار ولم أحزمه وقالت بكل وضوح ومحبة بلغة فهمت كل تعابيرها: أرجوك، لا تحرميني من حفيدي مدى العمر.
وفجأة تعانقت يدانا وانعتق لساني وانهمرت دموعي بغزارة فحضنتها وقلت لها بلغة واضحة:
سأعود، صدقيني سأعود وحملت ابني والكتاب وغادرت.

هناء كرم